الأعلام. إن المؤلف يوظفها في بنية النص القصصي كلحظة «استذكار» فقط («تذكرت قبر المعتمد بن عباد وزوجته»)، لا تنصهر انصهاراً بنيوياً في بنية الخطاب القصصي شكلاً ودلالة وبناء، مع ما يستتبع ذلك من تهجين للشكل القصصي واللغة، و«عصرنة» و«ترهين»[٩] للشخصية التاريخية في الزمن الحاضر.

طنجة

٣ آراء في بُستان الشمس(*)

د. سهيل إدريس

١ ـ البساطة العميقة

حين تقرأ كميل قيصر داغر في مجموعته كان **بستان يسمى الشمس** تجده يغني في ذلك السّرب يتميز بتلك الشفافية النادرة، الضاربة في التلقائية والبعيدة عن التكلف.

إن له حساسيته الشعرية الخاصة المستمدة من ذاتية لا تدين بشيء لأحد من الشعراء، بل تنطلق من عالمٍ تشكل فيه المرأة الحيِّز الأسمى، تعلن نفسها شديدة الخصوصية، ولكن شديدة العمومية أيضاً. ولعل قصيدة «امرأة واحدة» تعبر أفضل تعبير عن هذه الازدواجية الملتبسة:

«أنا عاشقُ امرأتي/امرأتي تتجمَّع مثل الغيوم وتعلن قرب هطول المطرْ/ أنا عاشق امرأتي/امرأتي هي كل اللواتي أحب/ وأحببتُ/عبر الدهور/ لأجتاز بحر الضجرْ/ أنا عاشق امرأتي/ امرأتي الزمن القادم.. امرأتي اللحظة الخالدة/هي امرأة تتغير في كل حين/ولكنها امرأة واحدة».

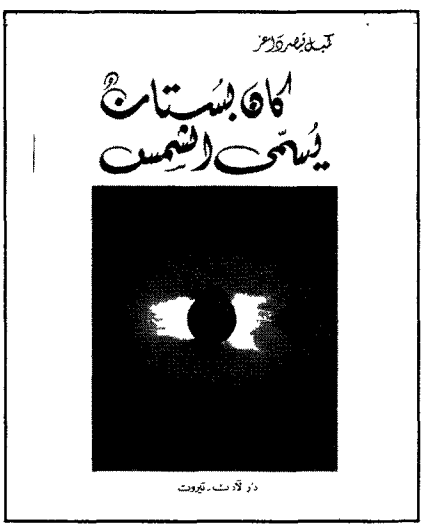

إن البساطة التجريدية في هذه المقطوعة لا تتناقض مع عمقٍ متميز يحمل إيمان الشاعر بوحدة الكينونة مع تغير الهوية وإمحاء الحدود بين الأزمان المنصهرة في لحظة خالدة.

وبالرغم من أن سماء كميل داغر مطرزة بالشمس والقمر والنجوم والمطر، فهي متسعة الآفاق النفسية والصور/ اللمعات التي تشي بخيال غني وحس عميق بالعلاقة بين الأشياء.

وأود أن أستشهد هنا بثلاث من هذه اللمعات:

الأولى، نهاية قصيدة «جسدان»: «جسدانا حرفان/ متى تولد بالوصل الكلمات؟». فهذه المقولة البسيطة تفجر العلاقة بين الجسد واللغة، وتجسد المتعة العظيمة التي يولِّدها انصهار التعبير وانصهار الأجساد.

والمقطوعة الثانية بعنوان «هدهدة» تجمع بين البساطة واللطافة والطرافة: «أخذتكِ بين ذراعي/ هدهدتُ جسمكِ/ قلتِ أنا سأنامْ/ ومذّاك ما عدتُ أفعل غير احتمالِك بين ذراعيَّ/ هدهدةِ الجسد المستفيق لكيما ينامْ».

وفي هذا السياق من النوم، تأتي المقطوعة الثالثة «أرق»: «ليلَ نهارَ لا أنامْ/ لأتلقى كل لحظة إشاراتِكِ/ أبقى صاحياً على الدوام».

ذلك نموذج آخر للبساطة في الرؤيا والتعبير وما يحدثانه من تأثير.

بقي أن نشير إلى تطور الشاعر كميل قيصر داغر تطوراً كبيراً بين بدايات الديوان ونهاياته. ويكفي أن نقوم بمقارنة سريعة بين تاريخ أول قصيدة، «حب» (عام ١٩٧٠) وتاريخ آخر قصيدة «أفحص كل الوجوه» (عام ١٩٩٣)، لنلمس هذا التطور في المعنى والمبنى. على أن الإيقاع النابع من التفعيلة التي اعتمدها الشاعر يظل متوفراً في قصائده جميعاً، ويضفي على شعره موسيقى ترفع درجة شاعريته المميزة.

هذه تحية صغيرة إلى هذا الشاعر الذي يجعل من البساطة العميقة مَرْكباً يعبر إلى عالمٍ مليء بالحب الهامس والخيال الغني والحساسية الشفافة.

٢ ـ تعالوا نقرأ شعراً

أميلي نصر الله

تعالوا نصغ إلى تغريد البلابل، تعالوا نبحث عن أزهار البنفسج المتفتح في الزوايا

---

(٩) بخصوص «عصرنة» و«ترهين» الشخصية التاريخية في النص القصصي، كمكون بنيوي في الخطاب القصصي، أنظر تحليلنا لشخصية «طارق بن زياد» ضمن دراستنا «تمزق البناء القصصي والرؤيا»، **كتابات معاصرة** بيروت العدد ١٥، ١٩٩٢.

(*) كميل قيصر داغر: **كان بستان يسمى الشمس** (بيروت، دار الآداب، ١٩٩٤) والآراء الثلاثة أُدليت في ندوة عُقدتْ بدار الندوة في بيروت.

المتواضعة من البستان، تعالوا نقرأ شعراً...

الشعر المعافى، إنْ كان بخير، فإن دنيانا جميعها تظلّ بخير..

الشعر السيد، الذي كان منذ أن وعى الإنسان ذاته ومشاعره.. وسوف يبقى، مهما طغى عصرُ الآلة، وبغى زحف التكنولوجيا..

الشعر البهي، يرفع النفس من مراتبها الترابية إلى حيث تعانق الألوهة والكيانات السماوية.

شعر كميل داغر يجعلك تحس هذا الارتفاع. بل إنه، حين يتغلغل بين ثنايا الوعي، يجعل قارئه ينطلق أبعد من حدوده الأرضية الضيّقة، ليبلغ التجليات الكونية.

ولكن، هل بقي للشعر مكان، في عصر الضوضاء والفوضى؟.. وأين نضع مثل هذه الباقة الفريدة من قصائد البستان، ونحن ندري بأن صحراء وجودنا تتقحّل يوماً بعد يوم ولا يبقى فيها متسع لبستان يسمى الشمس.. أي للبنفسج الهادئ والمتواري، أمام أغراس التسلق والتمدد وإن فوق الأكتاف المستعارة؟

* * *

عندما كنا صغاراً، نلعب في الحقول، وفوق مسارح الفصول، نتأمل تحولاتها، كانت تلفتنا في الربيع نبتة مختلفة عن سائر الغرسات، وكنا نسميها «زهرة القمر». ما تكاد أصابعنا الطرية تلامس ساقها، حتى تتناثر بتلاتها الأثيرية، وتتطاير، مثل الفراشات، في كل اتجاه.

وإذا ما هبت نسمة هواء، كنا نبصر «فراشاتها»، وهي تحلق بعيداً، إلى حيث يعجز البصر عن متابعتها ورصد مسارها. لكنها، في تناثرها وتحليقها، كانت تخلق جواً من الفرح يبقى عالقاً في الذاكرة، ومتشبثاً برموش العينين.

تذكرتُ زهرة القمر هذه وأنا أدخل عالم هذه القصائد، المكتوبة على مدى عشرين عاماً، والتي يجمعها بستان كميل داغر.

بالمصادفة، عثرت على هذه القصائد، وقرأتها، وكنت في أثناء القراءة أتساءل: أين كان صاحبها؟ ولماذا لا نراه أو نسمع اسمه في الواجهات الثقافية؟.

وحين ألتقيته، كان أول ما لاحظته في سلوكه، الهرب من الأضواء وسلطانها؛ فخجله البنفسجي يجعله منكفئاً، وكأنه لا يمت بصلة ما إلى هذا الزمان، بل إلى عصور مضت، كان فيها الشعر سيد المنابر والساحات، وكان فيها الشعراء الفرسانَ المجلّين.

لا أقصد بكلامي مديحاً، بل أحب أن أسجل ملاحظاتٍ على غرابة هذا الاحتجاب في زماننا الإعلامي، زمانِ الانفتاح، بل الزحف على البطون والركب، في سبيل الوصول إلى شهرةٍ ما تكون، في بعض الحالات مزيفة، وغير مستحقة.

يفترسنا شعر هذا الزمان.. ونثره. يغزونا، مثل مخلوقات مولدة في أنابيب صناعية، ويجيء في معظمه، فاقداً عنصره الأساسي لاستحقاق الحياة.. ويتساءل قائلوه: لماذا لا يقرأ الناس شعراً؟ متجاهلين الحساسية السليقية لقراء الشعر.

نعم، على الشعر أن يحافظ على شيء من السليقة، والعفوية، إلى جانب ما يحمله في نموه وتطوره في ذات الشاعر، من ثقافة، ورحابة خيال، وعمق في التفكير. وللشعر ميزان في غاية الدقة والحساسية؛ فإذا ما انشعر ذلك الميزان أو انكسر، فسد الشعر، مثلما تفسد الخمرة إذا لامستها الأنفاس المعاكسة لجوهرها.

والشعر، أيضاً، هو النبض الحي في قلب الأمة، فإذا كان نبضاً معافى، كانت الأمة بألف خير..

فهل نحن بألف خير؟

* * *

تحدثتُ عن «زهرة القمر»، وقد ذكّرني شعر كميل داغر بتلك الزهور، دائمة التحول، متواصلة الهروب. تحاول أن تتلمس آثارها بيدك، فلا تبلغ القصد، إنما تحسها سارية في مسارب وعيك، حاملة إليه نبض العافية والحياة. هذا برغم تنبيه الشاعر، في مقدمته، بأنه «لا يشعر بالانتساب إلى إله الشعر في حال».. مستعيراً من بعض أحوال وأقوال شاعر أصيل سبقه هو صلاح لبكي.

ويقول أيضاً، في بعض تساؤله ومحاسبة الذات لنشر هذا الشعر: «بأنها ربما نزوة.. ربما بسبب ضغط منها، الكلمات، التي تود أن تفلت أن أسر طويل.. في هذا الطور بالذات من سقوط كوني، وفي هذا الطور من الكآبة والتململ والإحباط على كوكبنا الجميل.. وبانتظار صعود آخر للأمل والنصر والفرح». وحين يبلغ خاتمة المقدمة، يعلن بأن هذه القصائد وُضِعت «تحت وهج مشاعر رائعة» و.. «انتصاراً لنساء الأرض».

سوف أتوقف عند هاتين النقطتين: انتظار الصعود الآخر للأمل والنصر والفرح و... الانتصار لنساء الأرض.

هل حقاً ينتصر الشاعر لنساء الأرض،.. وكيف؟

وهل انتصاره للأمل، هو نتيجة انتصاره للمرأة؟..

إن هذه الأسئلة، تردّني إلى ما كتبه الشاعر في دواوينه السابقة، وفيها يبرز وجه آخر له، غير ذلك «المنتصر لنساء الأرض...» هو وجه الثائر، المدافع عن الإنسان المقهور، كائناً من كان، وبشراسة يعرفها الذين خاضوا تجارب النضال السياسي والحزبي، في بلادنا، وأعطوها وهج شبابهم، بل أحياناً، نفوسهم كلها، وحتى الرمق الأخير. إنما الزمان لم يكن مؤاتياً، وحساب الحقل لم يطابق حساب البيادر، ولا حسابات الانتهازيين.

حين نقرأ تلك القصائد الأولى للشاعر، نتعرف إلى عمق تجربته وأبعاده الثقافية، وندرك لماذا يندفع اليوم، بهذا الزخم، باتجاه منابع الحلم، ومملكة النساء، فيعلن مع فلاديمير إيليتش أوليانوف بأنه ينبغي أن نحلم.. وينبئنا بأن:

«ملأت النساء فجراً قِرَبي/ماءَ/ شكرتُهن، وامتلأن بي». ويرى في وجه الحبيبة فجره الجديد، وفي الجسد الحي قدس الأقداس: «قُدّوس هُوْ الجسد العاري/ قدّوس هُوْ الجسد الحي/الجسد الصلح مع الكون..».

نمضي في القراءة، فتتكشف لنا صوره الشعرية، وتتفتح أفكاره، وتتجلى مواقفه. وندرك بأن الخيبات التي توالت على أجيال الشباب، منذ مطالع الكسوف، والانحسار للمد الثوري الطامح، والحامل بشائر التغيير، هي نفسها خيبات الشاعر، كتبها في مرحلة سابقة للحرب، وهي (أي الخيبات) قادَتْهُ لأن يتشبث، وبكل قواه، بالمحور الجاذب، الذي يرى من خلاله الخلاص الآتي... وأعني المرأة، لا كما هي بذاتها، بل بتوحدها مع الرجل، الذي يعود أحياناً إليها.. طفلاً: «أعود إلى زندك الناحِلِ/ تضمينني، تغمضين الجفونا/ وأرجع طفلاً.. أُرَدُّ جنيناً».. أو كما في تعبير آخر: «توحدنا النار توري الرماد وتذكي الجراح/ وأولد منكِ ومني أنا تولدين». ويمضي في مرحلة تالية، ليعلن لها: «أنت البداية والانتهاء» و «في مقلتي هجرة دائمة/ منكِ/ إليكِ».

صور التوحد هذه تتكرر، متخذة أشكالاً شتى. والمرأة هنا، لا كما ألفناها في الشعر الغزِل، فهو في حوار متكافئ متواصل معها وإن بقي في بعض الحالات حواراً صامتاً: «وتنحني نحويَ في صمتٍ وأنحني إليكْ/ نذوب واحداً بواحدٍ ونغدو الآن كائناً أحدْ».

.. انتق الآن إلى وجه آخر نراه للمرأة في شعر كميل داغر... هو المرأة الأرض.. الحضن والخصوبة.. أي الحياة. وصوره تثير الشهية للحياة ومتعها، وجمال الوجود وروعته:

«إن سرت سار الزهر أفواجاً وأطيبُ الشجرْ...» و: «وبقي الكون إذاً خُواءْ/ وبقي الكون/ إلى أن ظهرت حواء». وهو يكاد لا يبصر إلاها، فوجودها يملأ الكيان ولا يعود هناك غيرها: «أي الفصول سيأتي بُعَيد الشتاء؟ تأتين أنتِ/ وبعدك، لا شيء، لا شيء يأتي» و: «آيات جسمك بستانيَ الأجملِ» و: «وجهك يملأني بالربيع يفتح كل حقول البنفسج لي»: وفي نغمات أخرى خافتة، نشعر بأهمية وجود المرأة، لا في حياة الشاعر وحسب، بل في الكون بأسره، فهي الأرض، والخصوبة. وهي القوة والجمال، باعثة الحياة... ولم تعد، إذن، مصدراً للوحي وحسب، بل باتت هي المولدة والمحرّكة، والفاعلة.

إن فكرة الأرض ـ المرأة، أو المرأة ـ الأرض ـ الخصوبة، ليست جديدة، لكنها تكتسب لدى الشاعر هنا نكهة مختلفة، تجعلها في مراتب التقديس.

لماذا كانت وقفتي عند صورة المرأة، وفي قصائد البستان؟

لأنها في الحقيقة، هي الصورة المسيطرة والسائدة.. ولأني أعتبر هذا التعامل الراقي مع المرأة، في الشعر، كما في الحياة، موقفاً للشاعر، ومقياساً لرقيه وسمو فكره وروحه معاً.

٣ ـ جمر ناضج كحبة الفرح

غسان مطر

لا أحد يعرفه مثلي، هذا الموغل في إجهاد روحه حتى الانكسار. فأنا شاهدُ تفتحاته الأولى على القصيدة، والمندهش من التماع حروفه وهو يصوغها حزناً عظيماً وحباً كبيراً منذ ما يقارب الثلاثين سنة.

وبين كثيرين كنا يجمعنا همُّ التسابق نحو عمق الجرح لنقبض على الروعة الطازجة، بقي هذا الفريد فريداً في توتره الهمجي، لا تنال منه الصيغ المألوفة ولا ينقاد إلى خفقات قلبه المشتعل بالمرارة والرفض. لكأن عصيانه الثابت إعلان يأسٍ من واقع، وتَوْقٌ إلى الأبعد الحامل في ثناياه بشارات خلاص.

وقد تنكسر الأشياء والحقائق بين يديه، ويبقى صامداً في احتضان أشيائه وحقائقه. هذا العناد فيه هو ابن الحلم يتشبث به من قاع غرقه لكي لا يسلِّم بأن العالم الذي ارتضاه يمكن أن ينهار أو يتلوث.

وأراني بعد ثلاثين عاماً مضطراً إلى استعادة قسماته نفسها التي بها أطل وجهه على الشعر، قارئاً من مزاميره الأولى ما يوحي بما هو اليوم بين أيدينا محط اللقاء. ذاك أن كميل داغر سيظل الطفل الغارق في الغضب حتى وهو يغني المرأة ويستودعها سرّ وجعه.

كان بستان يسمى الشمس مجموعة غزلية؟ ولكن هذا تحديد مسطَّح يطلقه من لا يعرف كميل داغر. بالنسبة لي هي

قصائد بحثٍ عن ملجأ بعدما صار الخراب هو العالم. هي نداءات استغاثة من سفينته الهالكة. إنها ورقته الأخيرة يرميها في وجه السقوط، لكأن رجال الأرض جميعاً غرقوا، والأفكار جميعاً هزمت، والأرض صيَّرها الطوفان الأسود وحشاً، فما بقي ضوء إلا في جسد امرأة هي الغصن الأخضر الوحيد في كوكب الاحتراق.

هل كان كميل داغر ينشر هذه القصائد لو أن الزمن غير هذا الزمن؟ هل كان يجمع هذه الفلذات التي لا يجمع بينها زمن ووحدة تجربة ووحدة لغة لو لم يكن كافراً حتى الانتحار؟ لن أسأل فلا أحد يعرفه مثلي. أين القصائد الاخريات التي كتبت بين هذه وتلك من قصائد هذه المجموعة؟ لماذا أخفاها كميل؟ «انتصاراً لنساء الأرض» كما يقول؟ بل انتصاراً لنفسك المهزومة يا صديقي، وكلنا معك في الهزيمة حتى آخر الروح.

ما زلت واقفاً أمام الباب، أقرأ يأس كميل داغر، وأحاذر ولوج بيت الضوء الذي هو الشعر، لأنني رافضٌ التسليم بأن هذا الالتجاء للمرأة عنده هو موضوعه. أقرأ ما خلف الغزل تكتشف أن الهنيهات التي فيها يستسلم كميل «تحت وهج مشاعره الرائعة» هي هنيهات ضئيلة أمام سنوات القتال اليومي الشرس من أجل عالم تنتصر فيه القيم كلها والمخلوقات كلها، لا النساء وحدها.

فالغزل عند كميل هو فِلْس الأرملة، أما الحياة فهي ثروته الطائلة.

وبعد فالكلام على الشعر افتعال. إنه الشعر يهزك حتى النشوة أو يميتك برودةً ومللاً. وإني لفي مأزق كلما طُلب إليّ قولٌ في شاعر، فأنا أرفض التشريح كما لو أن بين يديّ جثة، وأرفض التوقف عند الفكرة والشكل والصور واللغة والموسيقى والخيال كما يفعل دهاقنة الكلام الأجوف الذين نقاداً يُدعون. وأرفض اصطناع موقع بين قديم وحديث إذ الشعر فوق كل تصنيف. وأرفض المدارس والتقسيمات والتحليلات من الجرجاني حتى فوكو وداريدا. الشعر، حتى الشاعر نفسه لا يسأل عنه، فكيف بالآخرين؟ والشعر، تقرأه. تفهمه أو لا تفهمه، فهذا لا يعنيه. الشعر شرطه أن يسطع ويحرق ويختفي. وكما الله يخلق دون أن يُسأل عما صنعت يداه، فلا حتى معه ولا لماذا، هكذا الشاعر، دعوه يكتب ولا تدنّسوه بالأسئلة.

في **كان بستان يسمى الشمس** أنت مع شعر. في القصائد القديمة التي كُتبت قبل عشرين عاماً تجد شاعراً يتكون. قلقٌ هنا وقسوة هناك ولكنه شعر يمد رأسه الجميل الملتهب ليعلن ولادة جاهزة لأن تكتمل. أما في القصائد التي لا يتجاوز عمرها السنوات العشر فترى الجمر ناضجاً والخبز نقياً كحبة الفرح. بمثل هذا الشعر نعوض عن الكثير من العجز الذي يُرمى في وجوهنا كل صباح على أنه كلام جديد. وبمثله نقوى على الجدل الأسود حول ما هو منا وما هو استعارة ودجل.

ويبقى أنني في انتظار أن ينشر كميل داغر قصائده المخبأة. تلك التي رصد لها لياليه ووجعه وأعصابه. فزمن الهزيمة طويل ولن نصرعه إلا بالشعر الكبير. وسلام عليك يا صديقي في يأسك وانكسارك وفي احتيالك عليهما بالغزل.

بيروت